التفاؤل والتشاؤم

Optimisme & Pessimisme

لرسلان عبد الغني اليفي

ما اسعدك لو اتيح لك ان تلج حديقة ايقور الجميلة حيث الطير الشادي بلا انقطاع ، والزهر الدائب الايناع ، وحيث الشجر المورق المثمر ، والجدول الدائم الخرير ، وتجلس في اصيل من ذهب فوق بساط من سندس ، تحت خيلة من ياقوت ، وتلمس رجليك في قناة من لجين ، وشعرك في نسيم من حرير ، وتطير بعقلك في سماء من خيال فتشعر بأن كل ما ترى وكل ما تسمع ، وديع كالحمل حلو كالقبل ، ضاحك كالنسيم ، فيصفو ذهنك ، ويرهف حسك ، وتميل نفسك وأنت في هذا الجو المشبع بشذا الحب وشذا العطر ، الملىء بالموسيقى والشعر ، أن تحتسي بضع اكؤس من تلك الخمر النيسابورية المسافة ، تترقرق من ثنايا الرباعيات الخالدة التي صاغها الشاعر الفيلسوف عمر الخيام في سويعات نشوته ، واحلام يقظته ، ثم تساقيت معها أكؤساً اخر من تلك الخمر البغدادية الشهية التي عصرها ابو نواس من عناقيد خياله ، والتي اصطلح الناس على تسميتها شعراً ، وهي مع ذلك وقبل ذلك ضرباً من ضروب الخمر بل لعلها اجود ضروب الخمر التي يشمل منها الشارب وينتشي

لا ريب انك تسخر من هذا العالم الترابي ، الذي يحيا فيه الناس مع الانعام ، وان تزور عنهُ ، فهذي روحك الخالدة ، قد غالبت جسدك الفاني ، وعمت بجناحيها فرحة مستبشرة حتى ولجت جناناً لما يطأها بشر ، فثمَّ صرح من قوارير ممرد . وثمر من اجناس منضد ، وطير لاباييل مغرد ، وثمَّ متاع جميل اسمى ما يكون الجمال ، طاهر أحق ما يكون الطهر ، لا شائبة فيه ولا دنية . يا للمقام الساحر ! لقد اعادك الى الطفولة وانت رجل ومنحك بسمة الطفل المدلل وأنت بأعباء التبعة مثقل وألقى بك بين احضان حلم جميل يرنحك فوق لجات الخيال كما ترنح القارب الصغير في رفق الأمم موجات من النهر قد عشقته وهو بين يدي صانعه الواحاً ودمراً ! !

لكنك هبطت الارض ثانية ، وانت الحين في المعرة ، ولم يبق في نفسك مما نلت من لذة . وما تذوقت من متعة ، الاَّ آثار الذكرى . بيد انك تركت القبور ورحت تجوب انحاء القبور . تنظر من يمينك وعن شمالك متأملاً مفكراً ، ثم هأنذا قد وقفت أمام قبر كتب عليه

هذا جناهُ أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد

فصحتَ بصوت قطع سكون المقبرة الرهيب ... هنا يثوي أبو العلاء فهذا بيته !! وفي هذه

البقعة الموحشة الرهيبة تكلم رهين المحبسين وكان كليماً فيه جمال وفيه حزن وقليل من سخر. ثم حبات من در يتيم قد نثرت من جوف رمس ظليم، فاستحالت وحدها الى عقد نظيم، تريث ولا تعجل فقد يكون وراء هذا العقد شيء، فهذه قطعة اخرى تصلح ان تكون قرطاً! وهذه اخرى تليق بأن تكون سواراً!! عد الآن الى حسنائك فأنت اليها مشوق وزين جيدها ومعصمها الجميلين وأذنيها الصغيرتين بهذه اللآلىء الغوالي فهن خير ما يهدي الحبيب الى الحبيب!! لكن يا لسوء حظك فهذا الدر اليتيم الذي خلت انك بالغ به قلب حسنائك لم يزدها الا نفوراً منك واعراضاً عنك. لقد ظننتك تسخر منها وتكيد لها فهي لهذا قد أبت منك الدر وارتضت من خصيمك المحرز!! حاولت أن تزين به جسدها لتزداد جمالاً فازدادت قبحاً ودمامة وبدا عليها كما يبدو الثوب الفضفاض على الرجل النحيل بل بدت فيه كما تبدو بلبلس (الكرنفال) حقاً ان الدر قد لمع في موضعه — ولكنه ما لمع حتى الطفأ لألاء الابتسام على ثغرها والنور في جبينها وحتى انقبض صدرها وانساب الخوف الى قلبها فألقت به أمام عاشقها وفرت عجلى تنشد ملاذاً!! ألا تباً لك أيها العاشق وجندلاً سميت بشهرة السائح أبي العلاء فدار بخلدك — أن تزور حانوته. لكن أبا العلاء قد خدعك عن نفسك. فباعك درّاً لا يصلح لان يكون سواراً (خطبة) أو عقد (عروس) أو قرط (حب)!! فياليتك حين كنت في حديقة ابيقور قد قطعت وردة أو زنبقة، أو جلة من طلح وشيء من سدر قليل أو ليتك وانت تحتسي من راح الخيام وراح ابي نواس قد فكرت في استبقاء كأس من هذه وكأس من تلك. اذن لنلت ما كنت تطمح من قلب حسنائك ولما افتقدت حبها في اللحظة التي رقبتك فيها لتهبك قلبها خالصاً بلا ثمن!! فنفسك لم ان كنت لا بد لائماً وعيناً تنتظر أوبة عصفورك الهارب. عند وكره، فما هو براجع اليه ابداً!!

صدعت قلبك الصدمة. فأنت مفتقر الى طبيب يضمد جراحه فلم اخترت لطاسيًّا من (المانيا) هو (شوبنهاور) ليعالج تضميد جراحك وتسرية همومك ورقأ دموعك؟ لن يكون دواؤه عند كل صباح ومساء الا ان يلقي عليك فصولاً من سفره الخالد (الارادة) ولسوف يجذبك وهو يسمعك هذه الفصول المنمقة الثمينة الى فراديس رحاب فيها دوح وتهر، وفيها زهر وثمر، ونصحنا لك ان شئت ان تقبله ألا تلجها وحسبك ان تقف لدى بابها وقفة الآبي، فقد ترى في منظرها عن كثب شيئاً يسر وشيئاً يخلب، خير لك ان تظمأ، وخير لك ان تجوع وأن تؤوب صادياً طاوياً، من ان تشرب جرعة، او تطعم ثمرة، فالماء والثمر، كلاهما قد نقشت فيه الاماني فسمته فأصبح قاتلاً!!

ويلوح لنا انك عدت من المانيا مريضاً كما ذهبت اليها مريضاً وان الطبيب شوبنهاور لم يعدك ولم يستطع ان يعيدك لان مرضك التوى عليه واستتر. وخير لك اذن ان تلقي بقنانينه واربطته (ومراهمه) بما حوت من دواء دون ان تجرع منه قطرة او تضع على جرح من جراحك (لزقة) فقد يكون

فيه حتفك ان فعلت . ولعلك وانت في ايامك سادماً حزيناً قد عنَّ لك ان تتجه نحو ذلك الموسيقي البائس (لامنيه) وهو يعزف على قيثاره (النشودة اليأس) لكن حذار ان تسمعه بقلبك وعواطفك واقنع منهُ بسمع لا يتجاوز صماخ الاذن ، تلذذ بموسيقى النغم دون ان تذهب معها بعيداً حيث تحاول ان تستقر فقد يكون مستقرها ناراً تحرق او بحراً يغرق ! ! ارث لهُ رثاء انسان بمجدود لانسان مفؤود لا يستطيع ان يمحو شيئاً من بؤسه وشقائه . ولا تعجب بهِ او تحاول ان تشاركه في حزنه فأنك وان كنت مثله حزين الاَّ ان حزنك قد جدَّ في سيره حتى لحق الفجر وهو من الصبح قاب قوس في حين ان حزنه والليل صنوان التقيا في مئزر واحد وسيظلان كذلك ابداً ! ! انت تصيح لهُ وهو ينشد !

(ايه أيتها النفس لِمَ انت دائمة الحزن والاكتئاب ؟ أليست الشمس في جالها الخلاَّب ترسل اشعتها حبات من الياقوت الاحمر وهي طفلة في المهد يرعاها الفجر ؟ وسلاسل من ذهب خالص وهي عذراء قد نمت وترعرعت ثم سقرت من خدرها تغازل الصبح ؟ انظري ايتها النفس الى اوراق الشجر كيف تختال في اغصانها رافلة في حلل مختلف الوانها ! وانظري الى الازهار كيف تفتحت اكمامها على نور اشعتها كما تتفتح اجفان الهُجَّع عند اليقظة ، بل انظري الى الطبيعة جميعها كيف نفضت عنها رداء الكرى ، وهبت فرحة متهللة لتستقبل حياة جديدة كلها بهجة وكلها حراك ! ان كل كائن يتنفس قد شحذ لسانه ليحمد للطبيعة هذه الآلاء العديدة التي اغدقتها عليه في سخاء لاحدَّ لهُ ولا من معهُ . فهذا العصفور الصغير قد وقف على فنن الدوح ينشدها قصائد مديحه والفضاء يردِّد صداها وهذه ربات الشعر قد طفقن بين الكلأ الاخضر رائحة وغادية . فلماذا تأزرين بكساء من الحزن كثيف اذا كان كل مخلوق على وجه البسيطة قد تمدَّد بين احضان المسرَّة والنعم في كوثر الحب في ذهول الخيال ؟ ان الشمس جميلة حقاً واشعتها خلابةٌ حقاً والطبيعة جميعها قد استعادت على ضوئها الحياة ، وانتعشت غلتها وارتوت ولكنني احز الودج حزناً واقرع السن ندماً لان هذه الحياة البهيجة المنعشة التي ابتسمت لها ثغور الاطيار والاشجار والبحار قد وقفت حيث هي ولم تمد اليَّ يداً . فثمَّ عالم قد غمرتهُ الشمس بأمواج من الضوء وتيارات من الدفء في حين ظلَّ عالمي الذي تعيش فيه نفسي محروماً من قبس من نور او جذوة من نار فهو دائماً في ليل داج مقرور قد لفهُ الشتاء في كساء من ضباب اغلب ظني انه كفنه الابدي . فلتذر اولئك التعساء الذين ليس لحياتهم ربيع ولا وراء ليلهم صبح ان يبكوا من القلب دماً قدمع العين قد جفَّ ونضب بعد ان جرح الاجفان وما اطفأ اللهب) (١)

نداء يائس أرضى ان تجيبه ؟... والآن ماذا ترى في ابيقور وصاحبيه الخيام وأبي نواس ؟ ترى فيلسوفاً وشاعرين او فيلسوفين وشاعراً قد ابتسموا للحياة فابتسمت لهم الحياة وتودَّدوا اليها تودُّد الاغصان الى النسيم ، فخت عليهم حنوّ المرضعات على الفطيم ، ورضوا عنها رضاء لا يشوبهُ تذمر او شكاة

(١) عن لامنيه La mennais بتصرف

فكشفت لهم عن نفسها في مرئي فرأوا جمالاً لم ترهُ عين ، ولا سمعت بمثله اذن فراحوا يترحون ويصيحون ويختلسون اللذات اختلاساً ويستمتعون في شهوة النهم ! ثم ماذا ترى في رهين المحبسين وصاحبيه شوبنهاور ولامثيله ؟ ترى فلاسفة ثلاثاً ، قد وضعوا على اعينهم مناظر سود فرأوا كل ما في الكون اسود كالليل ، ووضعوا اصابعهم في آذانهم فألفوا كل ما في الكون هادئاً كالقبر ، فبرموا بالحياة وعبسوا في وجهها . عابوا محاسنها وهن ملاح ، وارتطموا بالراح في الاقداح ، فكسروا الاقداح وأراقوا الراح ، وقالوا الحنظل اريق . فأين الرحيق ؟ وقالوا والشمس في هودجها فتاة ، يا لك من ليل اطول من ظل القناة ! وقالوا البلبل وقد فتح فاه ، وغرد فرحاً بالحياة ، توار غراب البين ، وانعق في مكان سحيق !

والانسان في هذه الحياة احد رجلين رجل كأبقور وصاحبيه وآخر كالمعرّي وصاحبيه !! رجل متفائل مستبشر بالحياة راضٍ عن عيشه الا في لحظات قصار اشد ما يكون القصر ، لا يقنطهُ ما تصنعهُ به يد الناس والقدر ، ولا ما يحيق بهِ من الاحداث والغير ، ان مُرَّ لم يذهب بهِ المرور الى حد الخيلاء والبطر ، أو تألم لم يهو بهِ الألم الى حضيض الضعف والخور ، يرى أن ما هو فيهِ خير ، وينتظر ما هو أخير ! يعمل في هدوء ما يوحيه الزمان والجد ، ولا يحمل نفسه عبء الاهتمام بما قد يجيء بهِ الغد ، يرى ان كل جرح لا بد أن يندمل مع الزمن وأن كل نجاح في سعي بوقتهِ مرتهن ، فهو لهذا لا يقرع على ماض سن ندم ، ولا يوجس خيفة من آتٍ لفَّ في دثر من ظلم ، ان نام نام ملء جفنيه لا يشهد سهداً !! وان استيقظ استيقظ وهو منشرح الصدر يستقبل في يومه الجديد آمالاً جُدُداً . اما الناس عدوه وصديقه فلا سبيل له معهم الا ان يحبهم كأخ سمح ، ينظر الى محسنهم بالمدح والى مسيئهم بالصفح ، والى معوزهم بالمنح وهو في كل هذا يرى ان لكل مخطىء عذره مادام الانسان خلق ضعيفاً ومادام اول ناس أول الناس

(انظر الى عيني هذا الانسان المتفائل كيف يلمع فيهما بريق الأمل والرجاء وتأمل نظراته تجدها ملأى باليقظة والجاذبية والحياء ، وانظر الى شفتيه ألا ترى انهما دائماً على أهبة الابتسام عند اقل اعتذار ألسنا جميعاً نحب ان نحيي هذا الابتسام الحلو بابتسام مثله حلو ؟ ألسنا نرقب أن يسمعنا هذا الثغر تحية صباح أو مساء ؟ انهُ يذكرنا بهبات الرياح على سنابل القمح ، وتكسر الموجات على شطآن البحر ، وخطرات النسائم بين الشجيرات والزهر ، وبكل صوت في الطبيعة يأسر اللب ويملك الحس . انهُ مليء بالموسيقى والشعر ، مليء بالجمال والسحر !!

(ثم انظره كيف يمشي ترَ قدمين ثابتتين وخطوات مرنة متزنة تنم على رصانة واتئاد ، وتراه يحمل ساعديه في خفة او يضعهما بترنحان الى الجانبين في انتظام وبداه واصابعه ؟ هلا تكشف عن قوة وعزم ؟ ورأسه الشامخة في غير زهو او سلف — ولكن في رفعة معتدلة ووضع منتظم هلا تدل على احترامه لشخصه واعتلاكه ناصية ذاته او ثقته بنفسه ؟ هلا تدل في وقت واحد على انه

متواضع في غير ذلة متسائل في غير كبرياء ؟ وعى انه في وقت واحد شديد في غير قسوة ، لين في غير خضوع ؟) (١)

لا ريب انك تريد في أن اصف لك الرجل الآخر الذي يقف من هذا الذي وصفناه من قبل موقف الليل من النهار ، والحظل من العقار ، حسبك ان تقلب الوصف وتعكس الآية فتظفر بما تريد وهل هو الا رجل قانط متشائم ينتظر الضر حيث لا ضر ، ساخط متبرم بعيشه احلولى ذلك العيش أو مر ، لا تسره شمس تطلع ولا شمس تغيب ولا يبهجه شتاء ذو صر ولا صيف ذو لهيب ، تضيق به الغرفة كما يضيق به الفضاء ، ويقبضه نظره الى الارض أو نظره الى السماء . يريد دنيا غير هذه الدنيا . وأناساً غير هؤلاء الناس . بل لعله يريد نفساً غير نفسه وحساً غير حسه ، هو حائر مضطرب يصور لهُ عقله المقيد بقيود الوهم كل جميل في هذا الوجود قبيحاً ، وكل شاد في الكون يصيح ويشكو . (انظر اليه تر عينين كليلتين قد فقدتا منذ زمن بعيد ما أعارها الشباب من جذى مشتعلات . تأملها لا ترى فيهما بارقة أمل أو لمعة حياة ..... وشفتين متدليتين قد ضلتا سبيلهما الى الابتسام يخيل اليك ان مر بك صاحبهما تحية لا بهجة فيها ولا روح . بئس كلم مصطلح عليه كله تصنع وكله فتور ! ! وقدماه ؟ ألا ترى انهما متوانيتان تسحب احداهما الاخرى كأنهما لا تجدان ميلا الى المسير او لا تريدان أن تحملا ذلك العبء الثقيل ؟ ... وذراعاه ؟ معلقتان الى الجانبين في ضعف وجمود وأصابعه رخوة كاصابع المحتضر)(٢) انسان قد اهرم وهو شاب فراح يشوكأ على عكاز شيخ وجبان يخشى ان يرفع قدمه مخافة ان يصيبها الزلل يفر من الشيء ويخاف من لا شيء . يذر رياض السعادة الزاهرة الثامرة وراء ظهره ليخبط خبط عشواء في بيد من الضلال لا اول لها ولا آخر ولا ثمار فيها ولا ازاهر ولا طير ولا نهر . ولا ديار ولا شيء الأعراء يقصر فيه قاب الطرف وهو هكذا موغل فيه كالمنبت لا طرق لهُ على بلوغ نهايته ولا قدرة لهُ على المآب ان اراد ... هذه حياة المتشائم من الناس سوداوي المزاج ، ولو ان السعادة سعت اليه في أبهى حللها لشاح عنها بوجهه يائساً فان ابت الا تعلقاً به اقصاها عنهُ وفر من المكان الذي هي فيه كما يفر جبان من خصيم يتقيه

حقاً أن الحياة لا تخلو من الالم . وهذا المعلم ، لا يريد أن يعلمها وانما هو يريد أن يهذبها والدمع الذي يولده ، منها يسقي زهرتها كما تسقي الروع قطرات الطل وماء المزن . والالم مر . ولكنهُ مر كالدواء والنفس التي ترفض الالم شبيهة بالمريض الذي يرفض الدواء الذي فيه شفاؤه حتى اذا أعضل داؤه استحال البرء منهُ ابداً . انا حينما نخاف دائماً ان نزل بنا القدم لا نسير ولا نتقدم نبين كأنا (أجبن من صافر) وان تلك اشجع من اسد ضار وحينما نخاف السقاط لا نبس ولا نتكلم نبين كأنا

(١) Elements of Success (Lily L. Allen)

(٢) ينصرف من (ليلي . ل. الان) في كتابها (Elements of Success)

(أهيا من باقل) وأن لك (أخطبمن سحبان وائل) افهل مثل هذه السعادة الحرجة المحدقة بسيران من التردد والخيفة سعادة انسان حي ام سعادة جلمود وجيفة ؟ او ليست هذه تعلة من ركن الى الرذيلة ورضى (بحشف وسوء كيلة) ؟ انظر الى النفس ما في العالم وانظر الى اجل ما في العالم تر النفيس والجميل كلاهما حزين وتر ان هذا الحزن نفسه يزيد النفيس نفاسة والجمال جمالاً. فالبحر المترقرق كأنه بساط من لجين ترقص عليه الزوارق والسفين هذا البحر الذي يلوذ به القنطون ليعصمهم من القنوط ويعيدهم الى مرفأ الامل هو الآخر يتألم ويتألم في صبر وصمت فاذا عيل صبره وناء به صمته ، تذمر وشكا فعجّ موجه وطغت على الشطآن لجته . والسماء الصافية الاديم ينوء كاهلها بما تحمل ولكنها لاتستطيع ان تلقي به لانهُ قدّر عليها ان تحمله امانة حتى آخر الدهر. هذه السماء تتألم ولكنها لا تحب ان يشهد أحد ألمها لانها مخورة بما تحمل من كوكب ونجم فخر البطل بما يحمل من اوسمة المجد . فهي لهذا كثيراً ما تلتحع بالضباب لتخفي حزنها على أن هذا الحزن قد يعدو عليها فيمزق ثوبها ويفضحها فتبكي على الرغم منها دمعاً هواطل ! وهذه الدموع التي تترقرق من عينها جميلة وهي تتساقط كالدر النثير وجميلة حينما تهبط على الارض الموات فتحيلها الى روض نضير !!

والجبال الرواسي قد علا قنها الثلج ألا تذكرنا برؤوسنا حين يعلوها المشيب ؟ وهذه الاطلال الدوارس هلاّ تذكرنا بآمال حسان قد ذوت وحب شهي قد اخفق ؟ اوليس في هذه الذكرى ألمٌ ولكن هذا الالم محبب الى النفس لانهُ ألم نبيل يعيد الينا ذكريات جميلة ، نحب ان نحيا معها في حلم نوم او يقظة ! (وآيات الفن التي انتجتها القرائح البشرية الممتازة هلاّ تفيض آمالاً واحزاناً وشكايات ودموعاً ، فنيدون لافلاطون ، وفايدر لراسين ، وهملت لشكسبير ، وفاوست لجيتي ، والليالي لدى موسيه ، هي خير ما اخرج الناس من آيات البيان القديم والحديث لانها تنساب الى قلوبنا وتتغلغل في مشاعرنا حاملة احزاناً قد جلت عن الوصف واعتصمت من النفاد !) (١)

(فهذا الالم ما اجلهُ وما احلهُ ! تعساً لمن يعقهُ فيفعل به ما يفعلهُ الخطاب بالغصن يظله ! كم كان ينبغي للانسانية التي تسلقهُ بألسنة حداد ، وتنقم منهُ ، كما تنقم من النجم الجياد ، ان تباركه وان تمن في تمجيده ، لو انها كانت تفكر فيما تدين به له من يُدى سابغات ! ! انهُ عصى موسى التي تفجر من الصخور المحلة المارة ينابيع عذبة صافية ، يرتوي منها الصداة من البشر. لله دره من مؤدب حكيم ! يشوّب الجاني على ذلته ، ويفيق الغافل من غفلته ، ويحيل الطفل الماجن الذي لا يفرق بين التمرة والجمرة ، الى رجل مسؤول يقدر عبء التبعة ، والرجل المسؤول الى بطل عظيم يحمل آمال أمة ، وتحيل البطل العظيم الى قديس كريم ، لا يحصر جهده في حدود وطنه ، بل يتعداها الى كل بقعة درج عليها انسان يؤثر غيره عليه يشق ليسعده ، ويحترق كالشمعة ليضيء له ؛ فيهتدي بعد ضلال ، ويرعوي بعد تأثيم (٢)) . فأنت ترى ان المتفائل لا بدّ له من ان يتألم ولا بدّ له من ان

(١) عن بول جانيه Paul Janet من كتابه فلسفة السعادة (٢) جانيه : فلسفة السعادة

يبكي لانهُ لا يمكن تصور الحياة خالية من الآلام ولا من الدموع . بل لعلَّ المتفائل اكثر تألماً وأغزر دمعاً وفي الحق انهُ لكذلك لانهُ ادق حسًّا وأرق نفساً ولانهُ اكثر ارتباطاً بالناس وحبالهم وثقة فيهم من المتشائم الذي اعتزلهم وما يحبون !

ولكن هذا المتفائل سعيد محدود لان هذه الآلام الكثيرة التي يتحملها وهذه الدموع الغزيرة التي يريقها لا تصرفهُ ، ولا يمكن ان تصرفهُ ، عن حب الحياة ، لانها الثمن الذي بهِ اشتراها والذي بهِ اصبحت الحياة غالية ثمينة ! ! وكيف ينسى للعاشق الذي جاب من اجل معشوقتهِ السهل والحزن والبابسة والماء ، والبادية والحضر واستعاض من اجلها عن الاقامة بالسفر وعن النوم بالسهر ان يتخلى عن حبها بعد ان كلفهُ هذا الثمن الباهظ ؟ !

اما المتشائم فأغلب ظني ان المهُ قُتل ، ودمعهُ نزر ، فهو قلما يبكي لانهُ يستزري الحياة ويبخسها ثمنها فهو يدَّعي انها لا تساوي دمعة — لانهُ ليس فيها متعة ، وهذا الوجود الذي ليس فيهِ اثر ثمين ، لا يستحق تجميدة جبين ! ولكنه مع هذا بأس مرزأ بل لعله ابأس خلق الله طُرًّا ، ذلك لان ألمهُ صامت ، ودمعهُ جامد ، وليس اشق على النفس من الالم الذي لا يتكلم ، والدمع الذي لا يتحجر هذا فضلاً عن انهُ لا يجد امامهُ غرضاً سامياً يرمي اليهِ ويتعزى بهِ ويعيش لهُ ولا يجد امامهُ املاً يلوذ بهِ من يأسهِ

قد تحيط بالمتشائم لذائذ ومتع ولكنهُ لا يعرف كيف يتذوقها ولوقد تذوقها كما ينبغي لها ان تتذوق لكان أسعد الثقلين . قد تسمعهُ يضحك ويسرف في الضحك ولكنه يضحك من الفم لا من القلب ، فضحكه ميكانيكي لا بهجة فيه ولا هناء ، كالسراب الكاذب والبرق الخلب ليس وراءهما ماء وانما هما خداع سمع وبصر ، فالمجنون يضحك كما يضحك العاقل ، والثكلى تضحك كما تضحك العروس ، والسبع يبدو نابه اذ يغضب . وقل ايضاً : والسبع يبدو نابه اذ يضحك ! ! فالعبرة اذن بمصدر الفعل لا بمظهره . والعبرة ايضاً بجوهر الفعل لا بمظهره ، فكما تتفق المظاهر وتختلف الجواهر فكذلك تتفق المظاهر وتتباين المصادر . وخطأ نحكم على الناس من الوجوه او الثغور فما كل باكٍ مصاب ولا كل ضاحك مغتبط راضٍ وليست دموع الباكين وضحكات الضاحكين الا خدعة نخدع بها عن الحقيقة التي لا تتغيَّر ابداً . على انهُ بفرض ان ضحك المتشائم كان مبعثه السرور فهذا قليل وسروره فضلاً عن انهُ مشوب فهو وقتي والسرور الوقتي ليس دليلاً على سعادة صاحبه (فان خطافة واحدة لا تدل على الربيع لا هي ولا يوم صحو واحد فلا يمكن ان يقال ان سعادة يوم واحد بل ولا بعض زمن من السعادة يكفي لجعل الانسان سعيداً محظوظاً) [1]

بقي علينا وقد تعرضنا لشرح فلسفة التفاؤل والتشاؤم ان نعالج الاسباب التي جعلت هذا

(١) عن كتاب الاخلاق لارسطو ترجمة الاستاذ لطفي السيد بك

الانسان راضياً بفُلْه ينعم حتى في ألمه ، وذاك ساخطاً على كُثره يشقى حتى في نعيمه فنقول : —

لا مرية في ان نفوس الناس متباينة أشد ما يكون التباين حتى بين التوأمين ومع اللدنين ، فالنفوس معادن منها النفيس ومنها الرخيص ، والنفس الانسانية هي السبب الجوهري والرئيسي في توجيه الانسان وفي تكييف حياته واليها يرجع اكبر الفضل فيما يصيب من غُنْم ، وعليها تقع اكبر التبعة فيما يناله من غُرم ! ! ولكل انسان — بَلْه نفسه التي بين جنبيه — صفات متنوعة ورثها عن ابيه وجده ، وتجارب شتى اكتسبها بسعيه وجده ، ثم هو اما ان يقدر لهُ ان يمشي في ضوء العلم ، كما يمشي الساري في ضوء البدر يرتشف من مناهل المعرفة شراباً سائغاً ، ويطعم من جنان الحكمة أُكُلاً جنيًّا ، فيكون لهُ تحت قبة الشمس مكاناً يُغبط ولا يُغبط ، او يقضي طيلة حياته في ليل من الجهل بهيم يسير تحت سماء حالكة ، وفوق سبل شائكة ، بجوب اودية الضياع ، وقد عدَّ بين الناس من سقط المتاع ، وهذا الانسان بطبعهِ مدني لابدَّ له من جلاَّس صالحين او طُلَّح ، وخلاَّن اوفياء او غُدَّر ، قد يسخط على بيئتهِ ويمعن في السخط ولكنهُ ما يزال يؤثر فيها ويتأثر بها ، ولا يمكن لهُ ان ينفرد بنفسه بالمعنى المقصود من الكلمة ، وانما هو ينأى عن المنتديات والمجامع فلا يغشاها وهو في كل شعبة او ضحاها متصل بنفر من خلصائهِ — هم بلا ريب من صميم المجتمع الذي خال انهُ قد تخلص منهُ ابداً . هو بعيد عن جسم المجتمع ولكنهُ دائب الاتصال بروحه ، هو بعيد عن المصباح ولكنهُ يقرأ في ضوئهِ ، ينعم بشذا الزهور ولا يراها ، ويسمع هزيج الورق . وهو بعيد عن اوكارها . والطبيعة التي تحدق بهِ أليس لها في نفسه اثر ؟ ! قد تكون أليفة ساذجة كبنان الزنبق والورد ، وكروج العشب ، وكالجداول ذات الخرير الهامس كحديث العذراء ، وذات الماء الفضي ينساب كالافعى بين الرمال الملساء ، او مناظر غليظة كمناظر الغابات ذات الاشجار العالية كالاعلام ، او البحار العاجة الصاخبة كأنها مع الشطآن في حرب وخصام ، وكالابنية تطاول السحاب وكالمصانع ذات الدخان كأنهُ الضباب . . . ثم هو اما ان يكون في بسطة من الرزق تجعلهُ دائماً في مأمن من العوز او فقيراً معدماً لا يكاد يصيب قوت يومه الاَّ بشق النفس وذل الرقيق واما ان يكون متديناً يؤمن بقضاء الله وقدره او ملحداً ينسب كل شيء الى الطبيعة والى نفسه او متشككاً يمزج الايمان بالكفر مزجاً — فنفس الانسان التي حلت في هيكله وصفاته التي ورثها عند مولده ، وتجاربه التي اكتسبها وثقافته التي حصل عليها ، وبيئته الاجتماعية والطبيعية التي احاطت بهِ ، ودينه الذي اعتنقه ، وغناه الذي أعزه ، أو فقره الذي أذله ، كل هذه تدفع بهِ متساندة متضافرة وهو كالورق الصغير بين لجات خضم الحياة اواخر العاج الى مرفأ الامل والرجاء أو تهوي بهِ الى قرارة اليأس والقنوط . . . ! !